شذرات

شر السرقات الادبية سرقات المعلمين

داء السرقة والانتحال في الادب العربي داء قديم شاع في الجاهلية وكان ضرباً من ضروب الغزو والاغارة التي طبعت عليها سليقة الاعراب حيثما حلوا في البدو والحضر. ومع ان طرفة عدّ «شرّ الناس من سرقا» في بيته المشهور، فقد خالفه راوي كتاب «الكشف على مساوئ شعر المتنبي» للصاحب ابن عباد وقال: «اما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعراء الجاهلية والاسلام عليها ولكن يعاب ان كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جلّ المعاني ثم يقول لا اعرفهم ولم اسمع بهم.» (ص ١١)

وقد دان بجل السرقة بعض المتأدبين الذين لا هم لهم الا تطلب الشهرة من اخصر طرقها فهم يؤثرون استلاب ما لغيرهم والتزين به لعجزهم عن البحث والدرس، واعتقادهم ان القراء لا يفطنون لمآخذهم وسرقاتهم. وكثيراً ما يأخذون المعنى واللفظ معاً، ويستعيرون الشواهد والحجج التي عانى المؤلف اشد المشقات في تطلبها والعثور عليها، فينقلونها بالحرف وينسبونها لانفسهم دون حياء. كأنهم هم الذين تنبهوا اليها وتوصلوا بصبرهم وجلدهم الى استثارة دفائنها. ومن هذا القبيل ما فعله المعلم شكري محمود احمد بدار المعلمين الابتدائية في بغداد في مقالتين له الاولى «في الخمرة النصرانية في العصر العباسي» والثانية في «ليلة الماشوش» نشرهما في «الرسالة» المصرية في عددي ١ و ٢٢ من شهر سبتمبر — ايلول الفائت، ونسخ اكثر ما ورد فيهما من كتاب «الديارات النصرانية في الاسلام» الذي نشرته مجلة «المشرق» عام ١٩٣٨ واستمد منه كل ما جاء فيهما من نظم ونثر، ولم يزد عليه الا ما قل كابيات ابن مغرب العيوني. وعمد الى كثير من اشعار الكتاب فحلاها نثراً في وصف الخمرة والاديار ونقل بالحرف ما فيه من حاشية وتفسير، وخرس خرساً تاماً عن ذكر الاصل الذي استقى منه كل اوصافه دون خجل ولا حياء، كأن الكتاب لم يكن ولم يظهر للوجود

وكأنه اغترف من بحر علمه واستوحى من صدره كل هذه الاقوال والشروح التي جمعها مؤلف «الديارات» بشق النفس وطول المطالعة وتكرار المراجعة وكثرة التنقلات والنفقات في طوافه على خزائن الكتب في الغرب ، وهي التي اثارت حسد المعلم الاعرابي فوثب عليها واستاقها غنيمة باردة يفاخر بسلبها ويقرن بجلاها امام قرائه العرباء وتلامذته الاغبياء.

ومن هذه الغنائم والاسلاب ما ورد في كتاب «الديارات» من بعض اوصاف مخطوطات نادرة وقف عليها المؤلف في زياراته خزائن باريس والفاتيكان وليدن في هولاندة ونشر ما اقتبسه منها مع الاشارة الى مواقعها وصفحاتها وانفرد بالتنبيه عليها لاول مرة في «المشرق» و«الخزانة الشرقية» نظير كتاب «ادب الوزراء» لاحمد بن جعفر بن شاذان وكان منسياً في خزانة ليدن ولم يسبقه احد الى وصفه، ومثله ايضاً مجلد من شرح ديوان ابي نواس للاصبهاني في الفاتيكان، وهو الذي نقل منه ابيات ابي نواس في دير نهرازان وكان اول من دل على الدير والابيات وهي غير موجودة في ديوانه المطبوع. واهم من هذين المخطوطين كتاب «دستور المتجمين» لاحد الشيعة وفق جداً المعثور عليه في باريس واهتدى في تضاعيفه الى احسن شهادة وردت قط للمسلمين في النصارى في اثناء الكلام على ليلة الماشوش. وقد اثارت هذه الشهادة اعجاب المستشرقين حتى اسف احدهم في بروكسل ان لا يكون مؤلف «الديارات» توسع في وصف هذا الكتاب الفذ الفريد وعرّفه تعريفاً وافياً لما له من الخطر والقدر. وقد اغار المعلم شكري وهو جالس على عرشه في بغداد ونهب كل الفوائد والفرائد التي استخرجها مؤلف «الديارات» من هذه المخطوطات وغيرها دون ان ينبس ببنت شفة الى اول من نفض الغبار عنها كأنه هو تكلف السفر الى رومة وباريس وليدن وظفر بخباياها وابرزها لعالم الضياء والعلم.

وفعل المعلم مثل ذلك بما جاء في «الديارات» من نقد واستدراك على بعض اراء الاب انستاس الكرملي ووضع يده الخرقاء عليها واستلحقها طمعاً بفضلها دون ان يعزوها لخطيبها الاول ليوهم القراء وتلامذته انها بنت فكره وبصيرته ووليدة ذكائه وفطنته.

ولم تقف صلابة وجه المعلم شكري محمود عند هذا الحد من السرقة والاحتيال بل اقدم ايضاً على اتهام كتاب «الديارات» بالتحريف في ما رواه من اصل شرح ديوان ابي نواس الاصبهاني حيث قال يعني ليلة الماشوش «والنصارى لا تعرف بذلك» فزعم ان الاصل : « والنصارى لا تعترف بذلك » ، وان هذا التحريف مقصود . فهل يا ترى رحل المعلم بنفسه الى باريس واطلع على الاصل المخطوط في خزانتها ليستجيز لنفسه مثل هذا الانتقاد والتصحيح واذا كان يدعي انه قرأ العبارة في نسخة وقف عليها في بغداد فذلك لا ينفي ابداً ان الاصل في نسخة باريس هو كما روى في كتاب «الديارات» وهو حجة عليه . والفرق على كل حال لا يتجاوز النقطتين وهو اهون من ان يحرف ويُخان فيه وكل يعلم ما في منهج «الديارات» من التدقيق والتوثق والتشدد في الضبط والامانة في النقل ونسبة كل قول الى قائله وموضعه ورقمه في كل خزانة فاية حاجة ترى كانت للمؤلف في ايثار «لا تُعرف» وهي في الاصل على « لا تَعترف» في زعم المعلم ، ولديه ما يغنيه عن التبديل ويكفيه كل احتجاج ودفاع من شهادات المسلمين انفسهم وهو قول كتاب « دستور المنجمين » لاحد الشيعة :

« واما الماشوش فهو من تخريجات السفهاء عليهم انها ليلة يُجتمع فيها رجالهم ونساؤهم لطلب عيسى عليه السلام ثم يتهارجون كيف اتفق في الظلام ونعوذ بالله في التحريض على مُوالٍ او مُعادٍ وخاصة فرقة النصارى فيُرتهم — على فساد اعتقادهم — هي بلوغ النهاية في الصيانة والامانة والشفقة على الكافة . »

فاين هذا القول الصريح والمديح الباهر من الفرق الذي لا يؤبه له بين «لا تُعرَف» و «لا تعترف» وقد نقل المعلم شكري من هذه الشهادة الرائعة التي تسد فم كل طاعن ومثلب وتلقمه الحجر كل ما احبّه من دعوى المهارجة واختلاط الرجال بالنساء ليوهم ان الشيعي لم يفه بشيء سواها واطرح عمداً وقصداً كل الثناء على النصارى الذي نفى به معرّة كل تهمة وافتراء عليهم . فمن المحرّف والمفسد يا ترى هل هو كتاب «الديارات» وقد روى بالحرف قول المسلمين بفساد اعتقاد النصارى ام معلم بغداد المتعصب الذي تحكم في نص الشهادة وخان كل ذمة وامانة في الرواية ولم يفطن انه بتخريجه الباطل قد زج نفسه

في جملة السفهاء الذين قضى عليهم «دستور المنجمين» قضاء مبرماً. ووسم جباههم بالكذب والاختلاق ؟

ومما يدل دلالة قاطعة على سفاهة المعلم البغدادي وخبث نيته وما يكنّ صدره من الحقد والبغضاء انه تناول بيت جحظة في راهبات دير الملث الذي رواه ياقوت :

خفرات حتى اذا دارت الكأ س كشفن النحور والسيقانا

(ج ٢ : ٦٨١ طبعة اوربة)

فرفع منه لفظة الصلبان ووضع موضعها كلمة « السيقانا » جمع ساق ليتوصل بهذا التبديل الى نسبة الراهبات الى قلة الحياء والميل الى الفجور. ولم يقنع بمثل هذا التدليس والتزوير البذيء. بل شاء ادبه ان يدعي ايضاً في آخر مقالة الماشوش «ان بعضهم — ولا يخفى على احد من هو بعضهم — اخبره ان النصارى في عيد رأس السنة في هذا العصر يطفئون الاضواء في منتصف تلك الليلة مدة من الزمن فلا يرد احد يده عن شيء من قبلة او غمزة او غير ذلك مما يسمح به الوقت . » ومن قرأ هذا الافتراء والهذيان الذي يستحق ان يدفع بالقدم لا بالقلم وتذكر القول المشهور « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » يتحقق ان المعلم شكري محمود ليس على شيء من الاسلام الصحيح وانه بقية من بقايا معلمي الاولاد المشهورين قديماً بالحماقة والسخافة . والعجب من مجلة «الرسالة» بمصر كيف سمحت بنشر مثل هذه الاقذار وهي تعلم ما قد تجره هذه الاساءة من التفرقة وتهييج النفوس في وقت نحن احوج فيه الى التقارب والتآلف والتناصف وكيف تقبل دار المعلمين ووزارة المعارف ببغداد وجود معلم ارعن يعلم الناشئة والاولاد وهم رجال المستقبل مثل هذا التعصب والظلم والسرقات الادبية بدلاً من ان يحبب اليهم التسامح والسلام والاعتراف بالفضل حيث كان ويروّيهم البيت القائل :

وليس يعرف لي فضلي ولا ادبي الا امرؤ كان ذا فضل وذا ادب

وكل من طالع اشعار الشعراء المتطرفين في الديارات وانعم النظر في اوصافهم ورواياتهم يعلم ان كل ما زعموه من الاقوال والدعاوى وكل ما فتقت

لهم تراخيهم من المبالغات والتخيلات انما هو فن من فنون الشعر وضرب من ضروب الهزل والتفكهة يراد به الإغراب والإطراب فلا يجب ان يؤخذ على ظاهره ولا يُنزّل منزلة الصدق وتمثيل الواقع .وقد نبّه على ذلك العلماء والنقّاد وقالوا ان الشعر اعذبه اكذبه «وانما اكثره خدعة محتال وخلعة مختال جدّه تمويه وتخييل وهزله تدليه وتضليل» ومع ان المعلم شكري محمود قرأ مثل هذا التنبيه والتوجيه في كتاب « الديارات» الذي اوسعه نهباً وسلباً لم يشأ ان ينقاد للحق ويصون قلمه عن كل مغالطة وخداع بل تعمد التحامل على النصارى وإقرافهم بكل ما جاء في ظاهر اشعار الخلعاء من اوصاف الخلاعة والمجون لينسب لرهبانهم وراهباتهم التهتك والبعد عن كل تصوّن وتعفف .فاذا جاز له مثل هذه المغالطات والتسليم بكل ما جاء في اشعار السكارى والمتطربين من هذيان ومجنون صح لنا ان نعتقد صدق قول الخليفة بن يزيد :

فاخذنا قرباهم ثم كفّر نا لصلبان دبرهم فكفرنا

وقول عبدالله بن العباس بن الفضل :

اقمت بالدير حتى صار لي وطنا من اجله ولبست المسح والصلبا

وقول الكندي المنبجي :

ولقد سلكت مع النصارى كل ما سلكوه غير القول بالثالوث
بتناول القربان والتكفير للصلبان والتمسح بالعليوث

فهل يختار معلم بغداد تأثيم النصارى ولو بتكفير الخليفة وشعراء المسلمين اذا أخذ الشعر على ظاهره !